أنور شاؤل

مذكرات صبي بلا أحذية

اسلوب مبتكر في نقد بعض المعايب الاجتماعية

نشرت متسلسلة في مجلة الحاصد الأسبوعية
في أعدادها 12 – 31 من سنتها السادسة
(16 تموز – 26 تشرين الثاني 1936)

(حقوق إعادة النشر بأية صورة كانت محفوظة لعائلة الكاتب)

نصائح وعظات

اشغلت بالي قضية ايجاد النقود الضرورية لشراء لوازم الصباغة . قد تهزأ بي اذ تسمعني استعمل كلمة (قضية) في هذا الصدد انما في الحقيقة كنت تجاه قضية من اصعب القضايا حلاً . فالازمة ناشبة اظفارها في البيت . كنا بالكاد نجد ما نبتلغ به . ربما كان بالامكان الضغط على والدي للحصول منه على روبية او روبيتين (اذ ذاك لم يكن وجود للدنانير !) ولكن قلبي لم يكن ليطاوعني على ذلك . وقد كنت اقول في نفسي بوجوب ايجاد النقود دون ان اكون سبباً لان تبيت العائلة عدة ليالي بدون طعام !

حسناً . . لماذا لا ازور جارنا الوجيه الكبير (...) انه رجل فاضل كثيراً ما اولاني اهتمامه بما كان يغدقه علي من الكلمات المنتقاة والعبارات الرقيقة . لاشك ان هذه فرصة سينتهزها بكل ارتياح . . ثم ان القضية سهلة للغاية فهو لن يجود أو يتبرع إنما المرجو منه ان يقرض لبضعة اسابيع .

واستقبلني الجار ببشاشته المعهودة وكان قد فرغ من فطور الصباح وعلى عادته داعبني قائلاً : ــ

ــ اما زلت تطالع اكثر من ثلاث جرائد يومياً وعشر مجلات اسبوعياً . . . . انني اخشى عليك التخمة !

ــ عفوك ياسيدي ان الغذاء الروحي لا يتخم إنما الذي يتخم المقليات والمشويات التي يسيل لها لعاب الجائعين . . فضحك وضحكت وكانت واحدة بواحدة .

وفاتحته بالموضوع فاعجب بادئ بدء باقدامي على امتهان هذه الحرفة وعندما وصلنا الى مسألة القرض (! !) تنحنح واغمض عينيه وفرك جبينه وسعل ثم انفتقت قريحته فقال :

ــ كل شيء طوع امرك ياجاري الصغير انني لا امنع عنك شيئاً . . انما الذي اراه ان عليك الا تبدأ حياتك العملية بالديون . . اخشى ان يكون عملك هذا سابقة سيئة خطرة . . الدين يا عزيزي غول مخيف . . . داء وبيل فاحذر منها . . . انني مستعد ان اقدم اليك يا عزيزي كل ما تريد . كل ما تحب ولكن علي ان انصحك النصيحة الابوية . . لا تبدأ حياتك العملية بالديون . . فان في ذلك لخطراً على مستقبل حياتك .

كان جاري الوجيه يتكلم بكل جد وكنت اتخيل الرأفة الابوية تترقرق بين عباراته . . ولذا كان لعظاته وقع عميق في

نفسي ... فقدرت نصيحته الذهبية بعدم افتتاح حياتي العملية بالديون ... فالديون التي طالما سمعت عنها انها سلاسل تقيد الانسان وتضيق عليه الخناق كانت اكره الاشياء لدي ..

- اشكركم ياسيدي ... ان علي ان اعمل بنصيحتكم الابوية .. ان علي الا انسى افضالكم وايادكم ...

وودعته وانا مرتاح لانني عدلت عن الاستقراض واذ سرت في الطريق رحت اتعثر باذيال الفشل الى غير وجهة مقصودة .

حسناً ! قلت في نفسي انها قد تكون نصائح ثمينة ولكنها لا تسمن ولا تغني من جوع .. ان حضرة الجار الوجيه لم يحل المشكلة .. نصحني بعدم الاستقراض .. طيب .. ولكنه لم يتفضل علي بالطريقة التي يمكن الحصول بها على هذا المبلغ الزهيد. يا له من مراوغ مخاتل ... اراد التملص فحاول ان يتحفني بنصائحه الطنانة ولكنه لم يزدني الا جوعاً وظمأ .. يا للحياة ...

فاتحة خير

بعد يومين كنت احمل ادوات الصباغة واتنقل في الشوارع العامة . لقد باعت امي صندوقاً خشبياً قديماً قليل الاستعمال واتحفتني بقيمته التي كانت لي احسن رأسمال . . كنت اسير مضطرب الخطى اقدم تارة واحجم اخرى، كنت اتنقل دون ان احاول صبغ حذاء احد ولم يطلب مني احد ان اصبغ له . . كنت قلقاً متألماً . . . اتلفت يمنة ويسرة كاني جان فالجان اذ خرج من سجنه . !

اخيراً مررت بمقهى مكتظ بالناس فصاح بي احد الجالسين من افندية ذلك الوقت (وطبيعي انهم اصبحوا اليوم اناساً عاديين لا يفرقون عني في شيء بعد الغاء الالقاب ! !) فشجعت نفسي وتقدمت واذا به يرحب بي قائلاً :

- لماذا تأخرت اليوم يا حمار !

لم اشأ ان اجيبه بانه واهم وان الذي امامه صباغ حديث عهد بالصباغة اذ خشيت ان يعدل عن صبغ حذائه فجلست وشرعت باسم الله في مهمتي وانا واثق من النتيجة المرضية لأنني طيلة السنوات الدراسية كنت اصبغ حذائي بيدي كما كنت اصبغ اكثر ايام الاسبوع حذاء ابي . وعمي ايضاً . . . عمي صاحب الفضل العميم على العائلة . . . صبغت بنشاط اعجب حضرة المصبوغ له واذ فرغت من العملية اخذ صاحبنا يفحص جورابه قبل دفع الثمن فلحظ ويالسوء حظي. بقعة من الصبغ عالقة عليه قد اكون انا سببها وقد يكون غيري.. لا ادري.. ولكن الذي ادريه ان حضرته ساحه الله رفسني برجله رفسة دحرجتني على رصيف الشارع بضع خطوات وهو يصيح :

- يا كلب . . يا اعمى . . انك صبغت الجوارب . . والله لاخطفن روحك . . .

ليلتكم سعيدة !

احمد الله واشكره على فاتحة الخير هذه فقد قمت انفض غبار الموت الذي تعرضت اليه وسط الشارع حيث وسائط النقل اكثر انهما كانا في الفتك بالناس من عزرائيل !

وتعوذت بالله من هذه الساعة النحسة وتطلعت الى الناس المتجمهرين والجالسين في المقهى فلم اقرأ على ملامح احدهم ما يدل على انه مستعد لمعاونتي اذا حدثتني النفس أن اصمد للمعتدي علي واناقشه الحساب. كان الكل بين متفرج مستهزئ وبين لاعب غير مبال وعلى كل حال فان حضرة المصبوغ له لم يخطف روحي كما هدد . انه كان اجبن من ان ينفذ تهديده. لقد أبصر الشرر يتطاير من عيني . انما استطاع ان يخطف اجرة الصباغة ، ان «يأكلها علي» لا سامحه الله بها في الدنيا والآخرة .

حقاً انها كانت صدمة عنيفة شعرت على اثرها بدوار في رأسي . وقامت حرب طاحنة في اعماق نفسي بين احجام واقدام. ولعمري لقد كان ذلك اليوم اول يوم من حياتي عرفت فيه كم يقاسي الضعيف في سبيل الحياة ! لقد كان يعز علي ان ارجع عن الخطة التي رسمتها للعمل فصممت الا آبه لهذا الحادث . فقلت في نفسي ان المطلع اذا كان سيئاً فلا بد ان يكون المنتهى حسناً وتذكرت نصيحة استاذ اللغة اذ كان يقول حكمته البليغة « من صبر ظفر » اجل كان علي ان اصبر فلعلي ظافر في الاخير ولكن باي شيء اظفر ؟ هذا ما كنت اجهله فكان علي ان اتركه للايام تحققه بنفسها .

وخطرت لي فكرة انست بها اعتقاداً مني انها تخرجني من مأزقي . هي ان اقصر اشغالي في ايامي الاولى على الصباغة في داخل مساكن الناس حتى اذا اشتد ساعدي في المهنة - مادياً ومعنوياً على حد التعبير الشائع ! - وسعت نطاق اشغالي ورحت اصبغ في المقاهي والاندية والكازينوات وباقي الاماكن العامة .

لا شك انك تراها فكرة حسنة سهلة التطبيق مأمونة العاقبة . وهكذا فانني لم اتردد في الاخذ بها وفي عصر ذلك اليوم رحت اخطر في شارع داخلي من اهم شوارع العاصمة .

وبديهي انه كان علي ان اقصد الشوارع المهمة حيث يكثر الناس الذين بامكانهم ان يصبغوا احذيتهم ولحظت داراً انيقة المظهر فتح بابها ربع فتحة فتجاسرت

ومددت رأسي قليلاً فاذا برائحة عطرية تغمرني نافذة في خيشومي واذا بامرأة تفزع لرؤياي بادئ بدء ثم اذ ابصرت انني صباغ حقير اومأت لي بالدخول قائلة :

- ادخل . !

دخلت واغلق الباب ورائي . . . فاذا بي في محيط مريب . مقاعد وثيرة وموائد صفت عليها انواع الآنية . لحظت بيدها صنوف المشروبات الكحولية . . . لم ابصر رجلاً هناك . . . انما كنت اسمع في الطابق الاعلى اصوات نساء قدرت عددهن بما لا يقل عن ثلاثة . اردت ان اهرب بنفسي ولكن سيلاً من الاحذية انهمر علي من فوق على رأسي وعلى كتفي . . . يتخلل ذلك صوت نسوي ابح :

- اصبغ يا منتوف !

لم اجد عذراً بان امتنع عن الصباغة لذلك جلست اصبغ بقلب هالع لاعناً هذه الساعة التي خطر لي فيها الدخول الى هذه الدار وتذكرت احاديث الناس عن امثال هذه البيوت المشبوهة التي لم تعد منحصرة في مكان واحد . . . انما لوثت اهم المحلات شأناً . . . ولكن قلت في نفسي ما لي ولكل هذه الافكار . . والسفسطات ، لست من الضابطة الاخلاقية لافكر في امر هذه المشكلة . وان علي ان اصبغ واصبغ واصبغ . . .

وعندما فرغت من صباغة آخر حذاء خيم الظلام على الدار فانيرت المصابيح وبادرت بالخروج بعد ان تناولت اجرتي كاملة واذ وليت وجهي شطر الباب دخل رجلان تدل مظاهرهما على انهما من علية الناس قد لبسا نظارتين سوداوين ، اخفاء لبعض ملامحهما واذ ابصراني اهم بالخروج قال لي احدهما ساخراً :

- ليلتكم سعيدة ! !

واردف الآخر :

- اسرع بالذهاب يا صباغ السوء . .

وفي الحقيقة كنت «صباغ سوء» ولكن على نفسي . فانني ما كدت اخطو بضع خطوات خارج البيت حتى امسك بي نفران من الشرطة بملابسهما الرسمية مستفسرين بصوت واحد :

- ماذا كنت تفعل هنا يا كلب . . .

وبعد ان تمالكت روعي قلت لهما بصلابة :

- ماذا كنت افعل . . . اولا تبصران ماذا انا حامل . . . كنت اصبغ . .

فقاطعني احدهما ساخراً :

- نعم كان حضرته يصبغ . . . تفضل الى المركز . . . واشرح هذا لحضرة المأمور فلربما تستطيع ان تبلفه .

وتحت جنح الظلام ساقتني الشرطة الى المركز كما يساق اللصوص والقتلة المجرمون!